

المذهب الديني للقبائل الهلالية عند دخولها بلاد المغرب

تيرس نوح

باحث دكتوراه

جامعة جيلالي اليابس - سيدي بلعباس - الجزائر

ملخص:

إن وصول بني هلال، القادمون من الحجاز، حلفاء القرامطة، وهي طائفة شيعية إسماعيلية، سيعطي مظهرا آخر انعكس على الصعيد الجيني واللغوي للشعوب المنتشرة ليس فقط في المملكة الزيرية، وإنما في جميع أنحاء شمال إفريقيا. وعلى أساس الدراسات التاريخية، سنحاول في هذا الدراسة التعرف على المذهب الديني لقابل بني هلال: هل كانوا من السنة، أم كانوا أتباعا للطائفة الشيعية؟

Résumé :

L'arrivée des banus hilals, venus du Hedjaz, alliés des karamites, qui est une faction chiite ismaélites, a donné un autre aspect qui s'est reflété sur l'aspect génétique et linguistique des populations réparties non seulement dans le royaume ziride, mais dans toutes l'Afrique du Nord. Sur la base des études historiques, nous tenterons dans la présente recherche d'identifier la doctrine religieuse des tribus des Bani Hilal. Notre problématique est la suivante : étaient-ils des sunnites ou des adeptes de la secte chiite ?

- مقدمة:

عندما تثار قضية دخول القبائل الهلالية أرض المغرب، فإننا سنواجه سيلا من المؤلفات والبحوث والدراسات ومئات بل الآلاف من المقالات، أسهبت كلها في الحديث عن هذا الحدث التاريخي الهام في المغرب الإسلامي، لأنه اتخذ عدة اتجاهات وطرحت فيه الكثير من الإشكاليات وحيكت حوله القصص والأساطير التي تناولت هذا القدوم بالبحث والتتقيب، فوجدنا أن ما كتب وقيل عن هذه الواقعة التاريخية أخذ اتجاهين رئيسيين:

الأول يرى في هذا الزحف العربي الكبير إنجازا عظيما أسهم في تعريب السكان البربر وعمل على امتزاجهم مع العادات والتقاليد العربية، بالتزاوج والمصاهرة والعيش المشترك فتعرب البربر وتبربر العرب كما قيل.

أما الاتجاه الثاني والذي سار فيه أغلبية من دونوا لهذه الفترة، واصطف وراءه كل من تبعهم من الكتاب والمؤلفين العرب مع نخبة كبيرة من المستشرقين. رأوا في هذا القدوم شيئا سلبيا نتج عنه دمارا وفوضى، إذ تم القضاء فيه على العديد من المعالم والمدن والمدن، وطمست الجوانب الحضارية التي كانت قائمة وشاهدة على وجود فعلي لمؤشرات نهضة حضارية جديدة ناشئة في بلاد المغرب، على امتداد مساحته الشاسعة التي تنوعت ما بين طبيعة تربة بلاد المغرب الخصبة إلى مصادر مياهه التي لا تتضب ووفرة سبل العيش مثلما دلت عليه كتابات المؤرخين والزحالة العرب الأوائل والجغرافيين الذين زاروا هذه المنطقة ونقلوا لنا بكل صدق وأمانة الجانب العمراني والاجتماعي لبلاد المغرب بداية من القرن الثالث للهجرة. كل هذا أصبح أثرا بعد عين وآل كل شيء جميل إلى الاندثار والزوال مع مرور واستقرار هذه القبائل البدوية المتوحشة أو جحافل الأعراب الرُّحل التي لم تكن تعرف معنى للحضارة أو التمدن.¹

والملاحظة الهامة التي خرجنا بها، ونحن نحاول الإجابة على هذه الإشكالية هو أن جُل ما كتب عن الزحفة الهلالية تم بأقلام مشرقية متأثرة بالفكر الغربي، لم تخلو كتاباتهم في غالبيتها من الميل والتحيز وعدم الموضوعية عند الحديث عن القدوم الهلالي إلى بلاد المغرب بحكم عوامل عدة، منها الدينية

¹ - ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون (732 - 808هـ / 1332 - 1407م)، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحادة ومراجعة، سهيل زكار، نشر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (1421هـ - 2001م) بيروت، لبنان، ص، 188. و ينظر محمد الباجي المسعودي، أبي عبد الله، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، الطبعة 2، مطبعة بيكار، تونس، 1323هـ / 190 بيكار، تونس (1323هـ / 1902م)، ص، 47. وكذلك الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية في المغرب، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ترجمه إلى العربية، حمادي الساحلي، الجزء 1 الطبعة 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (1992)، ص، 245.

والقومية وحتى العقائدية. ذلك لأن كثيرا من الأقلام كانت ولا تزال تكن كرها تاريخيا غير مسبوق لكل ما هو عربي أو يمت بصلة إلى الإسهام العربي في الحضارة الإسلامية والنماذج على ذلك كثيرة ومتعددة ولا يسعنا المجال هنا لذكرها، فكانت أحكامهم في الغالب خدمة لما كانت تراه يخدم قضيتها وأفكارها ومصالحها. كما ساهم نفر كبير من المستشرقين الذين اهتموا بدراسة تاريخ المغرب الإسلامي في العصور الوسطى بهذه الهجرات العربية فاعترت بحوثهم وكتاباتهم عدة نقائص، ولم يجهدوا أنفسهم في فهم وإدراك أسباب الحضور العربي إلى هذه المنطقة، إنما تناولوها كحدث مدمر وطوفان عارم ابتليت به بلاد المغرب مُستنديين ومبررين موافقهم بما دونه ابن خلدون في كتابيه المقدمة والعبر أو ابن الأثير في تاريخه فراحوا يرصدون كل ما قيل عن مساوئ العرب وما خلفوه من آثار أثناء حلولهم أو ترحالهم بأية منطقة كانت وما كانوا يمارسونه من سلب ونهب وقتل وغيرها⁽²⁾.¹

ونحن وبالقدر الذي يمكن أن يدفعنا إلى الإجابة على الكثير من هذه التساؤلات. إلا أننا سنركز اهتمامنا على أحد أهم العناصر التي تم إهمالها من قبل

¹ - ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة، سهيل زكار، المجلد 6، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (1431هـ/2001م)، ص، 16-17. وقد جاء فيها كلاما عن طبيعة هذه القبائل وسيرتها في أطراف العراق والشام وأماكن إنتجاعها. ينظر أيضا، المليي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المجلد 2، تقديم وتصحيح: محمد المليي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص، 185.

(*) - كان علينا العودة إلى كتاب الفرد بل "الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم" وعدّ هذا المستشرق من قبل العديد من المؤرخين العرب أو الأوروبيين أحد أهم القامات في التاريخ الإسلامي وأثنوا على كتاباته ووصفوها بالقيمة والمختصة وأن جهوده فاقت كتبات المسلمين في ما تناوله وقدمه للمسلمين من دراسات وأعمال وبحوث. إلا أننا وجدناه مثل غيره لا يتورع في إعطاء صورة قاتمة عن الإسلام والمسلمين ويوزع لاتهمات وكثيرا من المغالطات، فهو وصف العرب الهلالية بالعصابات واستعمل مصطلح الغزاة والمحتلين في العديد من المرات، وقطاع الطرق وغيرها من المفردات التي تنتافي مع مكانة كاتب لا نجد فضله في إعطاء دفع كبير للأبحاث التاريخية في العصر الوسيط. ينظر، الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، من الفتح العربي حتى اليوم ترجمة: عبد الرحمن بدوي الطبعة الثالثة (1987)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص، 211-321.

جُل المؤرخين والمؤلفين سواء منهم المتقدمين أو المتأخرين، ولم نجد لها أثرا في ما تناولناه من أمهات الكتب والمصادر التي أرخت لتلك الفترة، اللهم إلا النزر القليل أو بعض الإشارات العارضة لدى ابن خلدون أو المصادر الإسماعيلية التي لم توليها الاهتمام والعناية الخاصة بها رغم كونها، مثلت منعرجا حاسما في تاريخ بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة، وأسهمت وإلى اللحظة في إبقاء الصبغة العربية الإسلامية الممزوجة بالموروث البربري الذي أضفى على المجتمعات المغاربية ميزتها الخاصة والمنفردة عن غيرها من المجتمعات الإسلامية. كما تجدر الإشارة إلى بقاء بعض المناطق من المغرب الأوسط والتي استقرت فيها العديد من البطون الهلالية المُشكلة من العنصر العربي الوافد، محافظة على نقاءها العرقي ولسانها العربي الفصيح مع تقاليدها وما حملته من عاداتها.¹

فلقد ظل الاتجاه الديني والعقدي لهذه القبائل في حكم المجهول، واقتصر ما كتب عنها على الجانب الحربي وتوزيعها الجغرافي ومن بعدها تمازجها وانصهارها في بوتقة المجتمع المغاربي ودخولها في خدمة الدول القائمة ومساهمتها في الجهاد إلى جانب البربر والعنصر العربي المتواجد في الأندلس من قبل، وبلاءها الحسن المشهود له. لكن ماذا كان عن نحلته المذهبية عند ما تقرر إرسالها إلى بلاد المغرب؟ هل كانت فعلا في خدمة المذهب الإسماعيلي الذي بفضلله سُمح لها بجواز نهر النيل والتوجه إلى بلاد المغرب؟ هل كان التأثير للخلفاء الفاطميين لما لحقهم من تمرد الزيريين على حكمهم وملاحقتهم لكل منتسب أو معتنق للمذهب الإسماعيلي، هو الهدف الذي من أجله قدموا بلاد المغرب؟

¹ - ينظر ابن خلدون، المجلد 6، القسم الأول من المجلد الذي أوفى فيه ابن خلدون بتقديم تعريف شامل وكامل لهذه القبائل حيث تتبع تاريخهم منذ الجاهلية، فافرد تفاصيل وافية عنها وعن أفخاذها بطونها وعشائرها، مع تحديد مضاربها وتحالفاتها وظروف معيشتها، ثم يشرح حالها في ضل دولة الإسلام وما بعدها على عهد الأمويين والعباسيين ثم إلى غاية استيلاء الفاطميين على مصر وما جرى من حروب ووقائع مع القرامطة حتى دخولهم بلاد المغرب.

وهل مزج هؤلاء الأعراب بين عقيدة القرامطة الذين حاربوا في صفوفهم وناصروا دعوتهم في البحرين والشام مع ما جاء به الفاطميون ؟ أم أنهم أخذتهم العصبية القبلية لنصرة إخوانهم من العرب كون الفاطميين هم من أصل قرشي ؟. وهل كان لهم دور في إعادة بث روح التشيع وإحياء ما حُورب بالأمس القريب من قبل المعز بن باديس بمباركة من مشايخ القيروان ؟. علما بأنهم كانوا يرفعون أعلام وشعارات الفاطميين أثناء دخولهم بلاد المغرب.

إن الإجابة على مثل هاته التساؤلات، تطلبت منا مراجعة العديد من المصادر والكتب واستخلاص بعض النتائج من خلال المعلومات الشحيحة التي لم تكن لتفي بالغرض، لنتبين حقيقة المذهب الديني لهؤلاء الأعراب وطبيعة التوجه الديني الذي حملوه هل كان سنيا أم شيعيا ؟ أم أنهم كانوا مسلمين وحسب.

- القبائل الهلالية: تعريفها وأسباب دخولها بلاد المغرب:

كانت القبائل الهلالية خليطا من القبائل العربية من بينهم سليم أقواها عنصرا وأعرقها وأغناها، وهلال التي غلب اسمها على مجموعها وبطونها وهم من أصل عدناني. محلتهم الأصلية منطقة نجد (الحجاز) ودخلوا في نزاعات وحروب طويلة مع القحطانيين الذين كانوا يُجاورونهم. وغداة ظهور حركة القرامطة (***) دخلوا في صفوفهم وأصبحوا جندا لهم وقدموا إلى البحرين وعمان ودخلوا في حروب ضد الدولة الفاطمية. وقد اعترف لهم الكثير بالقوة والمنعة وبلانهم في كل الحروب التي خاضوها، عندئذ سعى الفاطميون إلى استمالتهم، ونجحوا في ذلك

(***) - القرامطة: هي تسمية لفرقة شيعية ظهرت في العراق سنة (890م) بمدينة واسط، أسسها شخص يدعى حمدان قرمط فجعل من هذه المنطقة مكانا لدعوته وأنشأ فيها مركزا سماه "دار الهجرة" قسُمي أتباعه بالقرامطة. عرف عنهم لتطرف والغلو والتحلل من تكاليف الشرع وفرائض الدين ومن أهم عقائدهم الإيمان بقرب ظهور الإمام المهدي لذي سيملا الأرض عدلا بعدما ملأت جورا. انظر موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المجلد 2، الطبعة 1 (1995م) نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص، 380-381. و ينظر، الطيب محمد سليمان، موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية وتاريخية، المجلد 2، الجزء 1، الطبعة 2، (1417هـ/ 1996م)، دار الفكر العربي، مصر، ص، 14-15.

بعد قضائهم على ثورة القرامطة وتم نقلهم إلى صعيد مصر على ضفاف النيل واقطعوا أراضي خصبة كمكافئة لهم. إلا أن السبب الحقيقي كان لدرء خطرهم "لما عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم".¹ أما قبيلة زغبة ورياح اللتان انضمتا إليهم، فهما قبيلتان من العرب كانتا تقيمان على حدود مصر الغربية في إقليم برقة وكانت بينهما حرب وعداوة.²

وعن أسباب دخول هذه القبائل إلى بلاد المغرب فقد اتفقت كل المصادر على أن سيرة المعز بن باديس وتحامله على الشيعة بعد المذبحة التي وقعت في القيروان، وملاحقة فلولهم عبر كامل إفريقيا، وقطعه الدعوة العبيدية وتحويلها إلى العباسيين مع هدمه الدار الإسماعيلية، تزامن كل هذا مع تولية الوزارة لليازوري أبا محمد الحسن بن علي،³ الذي خلف أبا القاسم أحمد بن علي الجرجاني المتوفي،

¹ - ابن خلدون، المجلد 6، المصدر السابق، ص، 17. محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، أبي عبد الله المعروف بابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الطبعة 1، مطبعة الدولة التونسية، (1286هـ)، ص، 83. المبلي، تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص، 179.

² - ابن خلدون، العبر، المجلد 6، المصدر السابق، ص، 6. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزء 2، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، وزارة الأوقاف لجمهورية مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (1416هـ-1996م)، ص، 215. أحمد عمر مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية في المغرب (عصر الموحدين وبنو مرين)، ديوان المطبوعات الجامعية، (1982)، ص، 222.

³ - هو أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري نسبة إلى قرية من قري الرملة بفلسطين، كان أبوه عبد الرحمن أحد وجهائها ومقدما فيها، ولما نمت ثروته انتقل إلى الرملة واستوطنها. شب محمد الحسن في ظل أبيه الذي ولي حكم مدينة الرملة وبعدها اتصل بالوزير الجرجاني ونال عنده الحظوة. بعدها دخل في خدمة أم الخليفة المستنصر إلى أن أصبح الرجل القوي صاحب التدبير المحكم والدهاء الكبير الذي تمكن من الارتقاء إلى منصب الوزارة وهو القادم من أرياف فلسطين من أسرة مغمورة تمتن الفلاحة والزراعة. انظر المقرئ، إتعاظ الحنفا، الجزء 2، المصدر السابق، ص، 197-198-199-200. و ينظر، أمين الدين تاج الرئاسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفي المصري، الإشارة إلى من تولى الوزارة، تحقيق: عبد الله مخلص، طبع، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص العادات الشرقية، القاهرة، مصر، (1923)، ص، 73. كما ويذكر ناصر خسرو: أن اليازوري كان من كبار الدعاة وعمل في نشر المذهب الإسماعيلي قبل أن يستوزر. ينظر، ناصر

فاستخف به المعز ولم يُوفه حقه من التقدير والاعتراف وظن أن البعد الجغرافي سيجعله بمنأى عن أي رد فعل من قبل هذا الوزير المتمرس ولم يُقدّر عاقبة فعلته هاته وما ستجره على ملكه من محن ومصائب إلا عند ما وقعت الفاجعة وذاق وبال الهزيمة في معركة حيدران. وتحقق وعد الخطاب الذي أرسله اليازوري إلى المعز وما حمله من تهديد ووعيد أبانت عن حنكة سياسية وذكاء متقد ودهاء كبير، صفات خولت له تولي منصب الوزارة عن جدارة في الخلافة الفاطمية وهو القادم من فلسطين لا يحذوه سوى طموحه ومقدرته العجيبة على التكيف مع الظروف والأحداث ليصبح بعد عناء ومثابرة وصبر كبير أحد ركائز الخلافة الفاطمية. فصدقت مقولته الشهيرة "قد أنفذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا.¹ (***) فكان العد التنازلي لدولة بني زيري الصنهاجية وبداية لنهايتها بفعل القوم الهاللي، تلك الفكرة التي رسم تفاصيلها

خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، تصدير عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية للكتاب الطبعة 2، (1993م)، ص، 32.

¹ - هو أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري نسبة إلى قرية من قري الرملة بفلسطين، كان أبوه عبد الرحمن أحد وجهائها ومقدما فيها، ولما نمت ثروته انتقل إلى الرملة واستوطنها. شب محمد الحسن في ظل أبيه الذي ولي حكم مدينة الرملة وبعدها اتصل بالوزير الجرجرائي ونال عنده الحظوة. بعدها دخل في خدمة أم الخليفة المستنصر إلى أن أصبح الرجل القوي صاحب التدبير المحكم والدهاء الكبير الذي تمكن من الارتقاء إلى منصب الوزارة وهو القادم من أرياف فلسطين من أسرة مغمورة تمتن الفلاحة والزراعة. انظر المقرئ، اتعاط الحنفاء، الجزء 2، المصدر السابق، ص، 197-198-199-200. و ينظر، أمين الدين تاج الرئاسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفي المصري، الإشارة إلى من تولى الوزارة، تحقيق: عبد الله مخلص، طبع، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعادات الشرقية، القاهرة، مصر، (1923)، ص، 73. كما ويذكر ناصر خسرو: أن اليازوري كان من كبار الدعاة وعمل في نشر المذهب الإسماعيلي قبل أن يستوزر. ينظر، ناصر خسرو، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، تصدير عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية للكتاب الطبعة 2، (1993م)، ص، 32.

(***) - يختلف ابن خلدون في أمر مكاتبة اليازوري للولاة والأمراء والملوك في أمر توليته الوزارة، الذين لم يولوه بمعنى لم يعترفوا له بأحقية في شغل منصب الوزارة، لعدة أسباب بطول شرحها هنا، فانف من ذلك واشتد غضبه. ابن خلدون، العبر، المجلد 6، المصدر السابق، ص، 17.

وأعد خطتها اليازوري، وأقرها الخليفة الفاطمي. انتهت بزوال واختفاء دولة الزيبريين من مسرح الأحداث بعد قيام دولة الموحدين وقضائها على ملكهم.

فما الذي دفع بالوزير اليازوري إلى الاهتداء لفكرة توجيه هاته القبائل التي رُوضت بشق الأنفس، وأدخلت في خدمة الدولة بعد جهد جهيد، وعمل شاق، كلفت الفاطميين كثيرا فأنتت سياسة التقرب من زعماءها ومشايخها بشراء الذمم وإجزال العطايا، ومنحهم أراضي الصعيد الخصبة وغيرها من المزايا، أكلها وتم لهم في الأخير احتوائها وجعلها في خدمة الدعوة.¹

إن ما قام به المعز في ازدرائه اليازوري، كان خطأ قاتلا. فالرجل نظر في الوزارة ومضى فيها مضي الجواد، ونهض مسرعا نهوضا عز به في وجوه من تقدّمه، وكاتب ملوك الأطراف فأجابوه بوفور حقه.² فأظهر تمرسا ومقدرة كبيرة على تسبير شؤون الدولة نظرا للخبرة الكبيرة التي اكتسبها طيلة مشواره السياسي، وإطلاعه بخبايا الحكم والسلطة في السرايا بفضل ملازمته الطويلة لأم الخليفة المستنصر،³ فأصبح صاحب سرها وخادمها الأمين الذي لا غنى عنه، فتدرج في ذلك إلى أن صار أحد أعمدة الحكم في الدولة ودخل التاريخ من بابه الواسع لما ارتبط اسمه بالهلاليين ودوره في إقناع الخليفة الفاطمي بدفعهم نحو بلاد المغرب، التي سيتغير مصيرها ومصير دولها بالكامل عندما يقنع الخليفة ويحرضه على إرسال هاته القبائل إلى بلاد المغرب، لأنها ستعيد للفاطميين مجدهم الضائع، وتنتقم للشيعنة المضطهدين. إلا أن الحقيقة من ردة الفعل القوية للوزير، هي استعادة كرامته المهدورة من قبل المعز الذي لم يكن يدري بأنه يسعى إلى حتفه بيديه.

¹ - ابن خلدون، المجلد 6، المصدر السابق، ص، 17. الملي، المرجع السابق، ص، 180.

² - المقرئزي، الاتعاظ، الجزء 2، المصدر السابق، ص، 212.

³ - هو أبو تميم معد الملقب بالمستنصر بالله، ولد سنة (420هـ) وكان خامس خلفاء الفاطميين، تولى الحكم بعد وفاة أبيه الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، في منتصف شعبان من سنة (427هـ) وقد كان سنه آنذاك سبعة سنين وسبعة وعشرون يوما، واستمرت خلافته لمدة ستين سنة وأربعة أشهر وعدت أطول مدة يتولاها خليفة فاطمي. ينظر ابن خلدون، المجلد 6، المصدر السابق، ص، 16.

فالمعز في رأينا لم يكتفي بارتكاب هذا الخطأ الجسيم الذي انجر عنه تدفق سيلاً عارماً من القبائل العربية التي لم يكن على استعداد لمواجهتها وإن غرته الأمانى بذلك. لأنه لما علم بمقدمهم، قدر أن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة هجرة مؤقتة فرضتها الظروف الاستثنائية التي كانت تعيشها مصر في تلك الفترة، لما ضربتها مجاعة كبيرة أهلكت الضرع والزرع. ودفعت بهاته القبائل للبحث عن المرعى والكلاء لأنعامهم ودوابهم ومواشيهم.¹ وإن كانت فرضية التخلص منهم واردة في هذا الباب.

وقد حاول المعز قبلها أن يزرع الشقاق ويشير القلائل بين الوزير الجرجاني والخليفة الفاطمي، حينما راسله طالباً منه التحالف والوقوف في صفه لما كان يعده سرا وخفية للإيقاع بالشيعة وأولياء الفاطميين في إفريقية، لتحقيق رغبته في إقامة ملك مستقل له. إلا أن الوزير الفاطمي لم يندفع بعرض المعز.² وليس

¹ - ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة 2، المجلد 9 (1995م) ص، 236. ابن عذاري، البيان، الجزء 1، المصدر السابق، ص، 293. المقرئ، الاعتاض، لجزء 2، المصدر السابق، ص، 164-233. وكذلك ابن بسام أبي الحسن علي الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، القسم الرابع، المجلد الثاني، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص، 614.

² - لم يحتط المعز ورجال دولته بما كان يديره له اليازوري، ولم يحسبوا جيداً لحجم الكارثة التي باتت تهدد دولتهم ويبقى موقف المعز المتراخي من الهالبيين يثير الكثير من التساؤلات التي لم نجد لها الجواب الكافي. فهل غاب على المعز الذي كان له ممثل مستقر في القاهرة. أن رحيل هذه القبائل بمعية سلاحها وعتادها بصحبة نسائهم وأطفالهم ودوابهم وخيامهم وكل ما يملكون كان هدفة الاستيطان والاستقرار. لأنهم أن أبواب مصر أصبحت مغلقة في وجوههم بمجرد اجتيازهم النيل، فالمسألة إذن هي قضية حياة أو موت بالنسبة لهم. كما أن تمليكهم إفريقية من قبل الخليفة زاد من أطماعهم. فكان الأحرى بالمعز أن يحتاط لذلك. و بوسعنا إدراج مراسلة المعز للوزير الجرجاني بأنها مناورة خاسرة، بينت لنا بعض الجوانب المخفية من شخصية الأمير الصنهاجي، والذي وإن كان بطلاً مقدماً وفارساً شجاعاً، ويعود له الفضل في تمكين المذهب المالكي من استرداد موقعه الريادي في إفريقية، إلا أنه قام بأخطاء جسيمة كلفته خسارة ملكه ومحاصرته من قبل العرب إلى أن غلبته الحسرة على ما آل إليه فانسحب تاركاً مقاليد الدولة لابنه تميم. ينظر، ابن عذاري، البيان، الجزء 1، المصدر السابق، ص، 297. المؤنس، المصدر السابق، ص، 81. التجاني، المصدر السابق، ص، 19.

مستبعداً أن يكون اليازوري قد التقط جواب الجرجاني، فلما انتصب على رأس الوزارة وبلغه ردُّ المعز واستخفافه به، أراد أن يظهر بأسه وشدته في معالجة هذا النشور والتمرد، فأمعن التفكير لإيجاد وسيلة فعالة لتأديب المعز من دون أن يدفع بالجيش الفاطمي إلى البلاد البعيدة أو ينهك الخزينة. كما أن طائفة كبيرة من هذا الجيش كانت من المغاربة، بل حتى من قاداته ومن نفس قبيلة المعز.¹ فلما انسلخ هذا الأخير بإمرة إفريقية، ثارت ثائرة الخليفة المستنصر بالله، واشتد حنقه على المعز، ووجد اليازوري ضالته في الانتقام، والتخلص من عبئ القبائل العربية، فسلطهم على المغاربة الذين سيتجرعون مرارة نبذهم المذهب الشيعي لجهلهم طبيعة هذه القبائل وشدة مراسها واستحالة ترويضها أو هزمها. الشيء الذي كان يدركه الفاطميون وعلى رأسهم اليازوري لما كان بينهم وبينها من حروب طاحنة ومتواصلة لم يستطيعوا فيها دحرهم ولا التغلب عليهم رغم قوة جندهم وجيشهم الكبير. حينها اجتمع الخليفة المستنصر بزملاء القبائل العربية بعد أن مناهم بالمساعدة المالية وخاطبهم قائلاً: "لقد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الأبق، فلا تفتقرون"² كان هذا التصريح بمثابة إيذاناً بتسريح الهلاليين، لبدأ تغريبتهم إلى إفريقية وفتح باب جديد في عودة قوة أخرى حاملة لشعار الخلافة الفاطمية، حريصة للذود عن حمى الشيعة والانتقام لهم من السنة الغلاة الذين إظطهدهم.

¹ - ينظر تركيبة الجيش الفاطمي في مصر وإستعراضه العسكري في كتاب، سفر نامة، لناصر خسرو، المصدر السابق، ص، 109. وعن دور الكتاميين الذين كانوا يعتبرون عماد الدولة الفاطمية وأصل جيوشها، ينظر، القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء 5، ص، 449.

² - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، المجلد 6، ص، 17. ابن حماد أبي عبد الله محمد بن علي، أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نكرة، عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، مصر، ص، 104.

- Ernest mercier. Histoire de l'Afrique septentrionale (BERBERIE) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830). Ernest Mercier. Tome second.

Ernest le Roux éditeur. Paris. Éditeur. Paris. (1868) p.19.

- هل كان الهلاليون شيعة:

عندما بدأ الاستعداد والتهيؤ للرحلة الطويلة في اتجاه المغرب، لم يكن الأمر بالبساطة التي يمكن تصوُّرها، أو اختزالها في هجرة جماعية لرهط من الأعراب للتخلص منهم وإبعادهم قدر المستطاع عن مصر ودفعهم إلى مصير مجهول باتجاه أرض غريبة لا يعرفون عنها سوى ما تواتر من أخبار، وما تناقله عرب الفتح عنها. بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى طبيعة هذا العنصر البشري الهام والذي لم يكن كما صورته المصادر بأنه همجي ومصدر إزعاج وهم مستمر للخلفاء الراشدين ومن بعدهم الأمويين. ثم ازدادت شروهم وتمردهم في عهد العباسيين بأن بلغت بهم الجرأة حدَّ قطع الطريق على قوافل الحجاج وبث الفرع في نواحي مكة والمدينة.¹

لكن ما يجب التنبيه عليه، هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد صاهر هذه القبائل وازداد بها الإسلام قوة ومنعة.² وأبليت هذه القبائل البلاء الحسن بعد استحواذها على مناطق شاسعة من بلاد المغرب، وكان لها الفضل الكبير في مجابهة أساطيل وجيوش النورمان المُغيرين على المهدية في عهد الحسن بن علي

¹ - الفرد بل، المرجع السابق، ص، 211.

² - خالد بن عبد الحميد، الوجود الهلالي السُّلَيمي في الجزائر، طبع (2003)، دار هومة، الجزائر، ص، 41.

- تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمر بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة. عرفت في الجاهلية والإسلام بأُم المساكين، وقد تزوجها الرسول (صلعم) في شهر رمضان على راس 31 شهرا من الهجرة، بعد استشهاد زوجها في يوم بدر وكانت الزوجة الرابعة بعد أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب. كما تزوج الرسول الكريم (صلعم) ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بحير بن هزم بن ربيعة بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة. ويذكر بعض المؤرخين أنها هي التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، في قوله تعالى "و امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي". سورة الأحزاب، الآية 50. وكانت آخر إمرة تزوجها الرسول (صلعم). ينظر، عبد الله بن صفوان النصري، عبد الرحمن بن عمرو، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة 1، (1417هـ/1996م)، ص، 237.

بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس. ودارت الدائرة عليهم بعدما تلقفتهم سيوف الأعراب وأبادتهم عن آخرهم في جزيرة الأحاسي وقصر الديماس.¹

فهذه الشدة والمراسة وإتقانهم لفنون الكرّ والفرّ في الحروب، أكسبتهم هيبة ورهبة منذ التحاقهم بخدمة القرامطة الذين تمكنوا من جرهم إلى دعوتهم في بداياتها المبكرة، حين أرسل زكرويه بن مهرويه الذي كان داعية لقرمط. أبناءه إلى نواحي الشام، وبايعه أحد أفخاذ قبيلة كلب وهم بني عليص ابن ضمضم ابن عدي بن جناب، إلى جانب مواليهم سنة (289هـ). ثم لحقتهم جماعة من عرب بني الأصبع، وأخلصوا لهم، وتسموا بالفاطميين ودانوا بدينهم ودخلوا دعوتهم.²

كما استطاع القرامطة أن يضموا إلى دعوتهم الخلط من جشم.³ ويذكر ابن خلدون أن هذا القبيل كانوا كلهم شيعة للقرامطة بالبحرين، وتبعهم في ذلك بنو سليم الذين استولوا على البحرين وحكموها باسم الشيعة⁽²⁰⁾.⁴ ويضيف ابن خلدون إنهم كانوا أولي عدد وقوة وصاحبهم في رحلتهم بنو المنتفق الذين يُعدّون من بطون جشم والذين حملوا وناصروا الشيعة الفاطميين إلا أن انهزامهم أمام بطون

¹ ابن عذاري، البيان، الجزء 1، المصدر السابق، ص، 309. التجاني، المصدر السابق، ص، 335-336. ينظر، حسين ممدوح، الحروب الصليبية في شمال افريقية وأثرها الحضاري سنة (668هـ - 792هـ/1270م-1390م) الطبعة 1، (1419هـ/1998م) دار عمار، عمان، الأردن، ص، 127. و يذكر فيه أهم الجوانب الايجابية التي رافقت الدخول الهلالي إلى بلاد المغرب استشهاده بآراء بعض المستشرقين الذين أنصفوا العرب ولم يحملوهم وزر الأحداث المتعاقبة التي عاشها الشمال الإفريقي، بل أمدوا افريقية بدماء فتية ومحاربين لا يزالون يحتفظون بالشجاعة وخشونة البادية، وسيسهمون في الجهاد ضد الخطر الصليبي، لأنهم كانوا أكثر قدرة على ذلك.

² الطبري، المصدر السابق، ص، 95. ينظر المقرئزي، إتعاظ الحنفا، الجزء 2، المصدر السابق، ص، 221-222.

³ وهم مزيج من بطون قرّة والعاصم ومقدم والأثيج وجشم والخلط، فغلب عليهم جميعا إسم جشم فعرفوا به ويعود نسبهم إلى جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن. وفي عهد الموحدين تم نقلهم إلى المغرب الأقصى، ومن ثم تم توطينهم في سهل تامسنا بين مدينة سلا ومراكش، وظلوا محافظين على تقاليدهم وبدواتهم ولم يتمكن بنو مرين من غلبتهم إلا بعد وقائع وحروب طويلة. أنظر، ابن خلدون، العبر، المجلد 6، المصدر السابق، ص، 33.

⁴ ابن خلدون، المصدر السابق، ص، 35. المقرئزي، الاتعاظ، الجزء 2، المصدر السابق، ص، 216. الملي، تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص، 179.

تغلب¹ الموالية للدعوة العباسية، جعلهم يرتحلون إلى إفريقية بدعوة من أبناء عمومته الذين سبقوهم. ويشير ابن خلدون أيضا إلى أن بنو سليم كانوا شعوبا كثيرة، وهم يعودون في أصولهم إلى مضر.² وعن أحوال بنو سليم فإنهم ضلوا على عقيدتهم القرمطية، منذ نزولهم بالصعيد بعد انهزامهم على يد بني بويه المتحكمين في الخلافة ببغداد فأجازهم المستنصر إلى برقة وبقوا على حالهم إلى أن لحقوا بمن سبقهم من الهلالية. من خلال ما تقدم نكاد نجزم بأن هذه القبائل التي وفدت على بلاد المغرب، ورغم أنها تحركت لأسباب سياسية ورغبة في الانتقام من المعز، إلا أن الأحداث أظهرت أنه لا يمكن الطلب من أعداد كبيرة من الناس الارتحال إلى جهة ما دون أن يكون الدافع لذلك ما تحركه العصبية والغيرة على الدين.³ وهذا ما أبرزه ابن خلدون حين أشار إلى طبيعة مهمتهم بأنها كانت: "لتوليتهم أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها ودفعهم إلى حرب صنهاجة ليكونوا عند نصر الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة".⁴ وهذه العصبية هي التي دفعت بعرب ما بعد الفتح الذين كانوا في تعداد جيش المعز إلى الانسحاب والانضمام إلى إخوانهم في معركة حيدران.

¹ - يعدون أحد بطون قبائل ربيعة وهم بنو تغلب بنو وائل وبنو عمومته بنو بكر بن وائل، تفرعت عنهم شعوب عدة فمنهم بني شكر وبني حنيفة وبني عجل وبني ذهل وبني شيبان وتيم الله. وتذكر بعض المصادر أنه في حرب الجمل، انقسمت بكر بن وائل إلى قسمين، إحداهما ناصرت عائشة رضي الله عنها أما الأخرى فكانت إلى جانب علي وأصبحت من شيعته. ينظر، السرحاني، سلطان طريخم المذهن، جامع انساب قبائل العرب، ص، 29. ابن خلدون العبر المصدر نفسه، ص، 4-35. وأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية، الطبعة 2، (1402هـ-1982م)، ص، 130-131.

² - يجمع النسابة العرب على أن ربيعة ومضر هما ابنا نزار بن معد بن عدنان من العرب المستعربة.

³ - يذكر التيجاني، بأن العرب رفضوا في بادئ الأمر فكرة الرحيل، وأصرروا على البقاء، منافيا بذلك ما ذكره ابن بسام في الذخيرة حين أشار إلى أن جوازهم إلى المغرب كان بفعل أمنية سرت إليها أطماعهم. ينظر، ابن بسام الذخيرة، المصدر السابق، ص، 614.

⁴ - ابن خلدون، العبر، المصدر نفسه، ص، 17.

بالنسبة للإسماعيليين، فإن روح التضامن والولاء للمذهب كان من أبرز ما يلحق للمريد والمنتسب، ورأينا خلال مرحلة الدعوة في بلاد المغرب كيف تمكن أبا عبد الله الشيعي من تغليب روح المذهب على الإلتواء القبلي. وهذا ما عايشته البدايات المبكرة للداعي الشيعي أبا عبد الله عند مقدمه من اليمن، هذا البلد الذي لعب دورا كبيرا في تاريخ حركات الشيعة عبر التاريخ، وما تزال فيه إلى أيامنا هاته قبائل عربية تحافظ على موارثها القرمطية¹ ولما إنتصب عبيد الله الشيعي على أمور الدولة في رقادة أئته المبايعات من القرامطة الذين كانت تربطهم بهم علاقة عضوية ومذهبية من حيث النهل من نفس المشرب.

ونستدل على ذلك ما ذكره الإدريسي خلال وصفه لأحوال بلاد المغرب الاجتماعية والاقتصادية، وحين يتكلم عن الدخول الهلالي إلى إفريقية وتقدمهم إلى المغرب الأوسط على امتداد المراحل التي قطعوها، ووفقا لتطورات المشهد السياسي والحربي الذي لاقوه فإننا نلاحظ أنهم اتبعوا سياسة الأرض المحروقة، فكثر أعدادهم كما جاء في وصف ابن خلدون الذي نعتهم "بالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه" ونادوا بشعار الخليفة الفاطمي المستنصر.² فاستعملوا نفس الوسائل والأساليب التي أتقنها في الشام واليمن. فليس مستبعدا أن الهدف من وراء إظهار الفساد في الأرض واستباحة البلد وتخريب المباني وغيرها من الأعمال المقيتة كنت بهدف تجويع أهالي إفريقية وإظهار المعز في صورة المهزوم العاجز الذي لا حول له ولا قوة " فنزل بأهل إفريقية بلاء لا يوصف"³ وهو ما نجحت فيه الهلالية. وعلى ما يذكره الإدريسي الذي وافانا بصورة دقيقة على أوضاع البلاد، وسرد لنا حقائق في غاية الأهمية عن تحرك هذه القبائل على محاور ثلاثة أثناء

¹ - زكار سهيل، القرامطة في الإحساء، الشام، اليمن، العراق، نشر دار إحسان، الط2، (1402هـ/1982م)، ص، 37.

² - ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص، 18. المقرئزي، الاتعاظ، الجزء2، المصدر السابق، ص، 217.

³ - المقرئزي، الاتعاظ، الجزء2، المصدر السابق، ص، 215. ابن عذاري، البيان، الجزء1، المصدر السابق، ص، 208.

وُلوجهم أراضي المغرب الأوسط الذي لم تصادفهم فيه مقاومة أو اعتراض خاصة في نواحي مضارب قبيلة كتامة التي ناصرت منذ البداية الدعوة الشيعية واحتضنت أبا عبد الله الشيعي الداعية الفاطمي، الذي تمكن وبفضل رجالاتها من القضاء على حكم الأغالبة وتمهيد الحكم لعبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي الذي أعلن وبصفة رسمية قيام الدولة الفاطمية سنة (297هـ). فقد تم نسج علاقة حميمة وتوطدت العلاقات بين هاته القبائل وسكان مدن هذه الجهة، وعرفت بحسن صلاتها مع العرب، وأنه كانت بينهم معاملات وشراكة في الزراعة والتجارة.¹ وأغلب الظن أنه صدرت توجيهات من قبل الخلافة في مصر إلى زعماء هاته القبائل، بعدم التعرض إلى سكان تلك الناحية وهو ما تم بالفعل. و مما يزيد من تأكيدنا على ذلك الولاء التام الذي كان يحمله الهلاليون للخلفاء الفاطميين بمصر رغم بعد المسافة وتاريخهم الطويل في عدم خضوعهم بسهولة للحكام، إلا أننا نراهم بعد إنتهابهم للقيروان ودخولهم قصور المعز واستحواذهم على ذخائره وأمواله، يرسلون ما غنموه إلى القاهرة، ليراها الناس "فكان ليوم دخولها إلى القاهرة أمر عظيم".²

ويتأكد ولاء الهلالية للفاطميين وتمذهبهم بمذهبهم، هو استمرار تدفق العطايا والهدايا على شيوخهم وأمرائهم في بلاد المغرب كما كان الحال مع الأمراء الصنهاجيين. لأنهم وبموجب التكليف الذي أنيطوا به من قبل الخليفة الفاطمي الذي وهبهم ملك المعز، فإنهم أصبحوا هم الأسياد الجدد لإفريقية وأعادوا الدعوة الإسماعيلية بعد أن قطعها المعز بن باديس في كل منابر إفريقية وإمعانا في تأكيد عودة السلطة الفعلية للفاطميين فإنهم أعادوا التعامل بالسكة

¹ - وهو الاستنتاج الذي توصل إليه محمد الميلي عندما تعرض للنزوح الهلالي إلى المغرب، ينظر الميلي، تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص، 182.

² - المقريري، المصدر السابق، نفس الصفحة.

المستنصرية.¹ أو قبلها كان معسكر المعز بدأ يهتز على وقع بعض التخاذل والخيانات وسط معسكره، وهذا ما لمسناه عندما استقبل الأمير العربي مؤنس بن يحيى قائدين من قواد المعز الذين شقا عليه عصا الطاعة واستجاروا به، فاحتفى بهما وأنزلهما منزلة عظيمة عنده، "وأكرمهما وكساهما ثيابا وصلت إليه من مصر وسرّ بقدمهما".²

وهناك حادثة غريبة تستحق التأمل والتوقف عندها. بطلها زعيم فخذ من بني سليم، إذ دخل المسجد يوم الجمعة لابسا خفه، فنكر الناس عليه ذلك، فقال: "إني أدخل بها بساط السلطان، فكيف الجامع؟ فاستعظم الناس كلمته، وثاروا به لحينه، فقتلوه في المسجد".³ وقد إستباح الشيعة في بداية دولتهم على زمن عبيد الله بخيولهم أحد المساجد، ولما نبّههم قيّم المسجد على ذلك. إدعوا أن خيول المهدي بأرواتها وأبوالها طاهرة مثله.⁴

وعندما يتطرق ابن خلدون في مقدمته لقضية اللسان العربي ويخص بالذكر لغة القبائل الهلالية العربية الوافدة إلى بلاد المغرب، فإنه يؤكد على بقاء البلاغة والبيان فيها. و أن ما يثار من حديث عن فسادها وذهاب الذوق الصحيح إنما هي مقالات وكلام قد دسّها التشيع في طباعهم.⁵ فعدّ هذا بمثابة اعتراف بتمكن التشيع من عاداتهم وتقاليدهم، لأنهم لما دخلوا في خدمة القرامطة، تأثروا بأفكارهم وعقائدهم، وازداد هذا التأثير حين جلبهم الفاطميون إلى الصعيد لأنهم كانوا حريصين على تواجد العنصر العربي في دولتهم فغمروهم بالهدايا والأموال، فأعطت هاته القبائل ولأنها لهم وتبنت مذهبهم وصارت في تعداد قواهم. ويزيد ابن

¹ - محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام (297- 567هـ/ 910- 1171م).

دار النفائس، الطبعة 2، (1428هـ- 2007م)، بيروت، لبنان، ص، 265.

² - التيجاني، المصدر السابق، ص، 96.

³ - الفرد بل، المرجع السابق، ص، 218.

⁴ - ابن عذاري، البيان، المصدر السابق، ص، 284. و يكمن وجه الغرابة في هاتين القصتين، أن الأولى حدثت في سنة (705هـ) أي بعد مضي مدة طويلة على وقوع الأولى إلا أن الوقائع تشابهت إلى حد التطابق.

⁵ - ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص، 634.

خلدون في كتابه العبر عند الحديث عن المواطن التي إنتجعتها هؤلاء العرب في بسائط المغرب، وعن أهم بطونهم وسيرتهم فيها. فإنه يُفرد حيزا للكلام عن شخص شخص من مسلم إحدى شعوب رياح يسمى "سعادة". ارتحل إلى تازة بالمغرب الأقصى وأخذ العلم من صلحائها وفقهائها، وعاد إلى مواطن رياح بفقته صحيح وورع وافر، وبدأ في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغييره، فاشتهر بذلك وكثر أتباعه وسُمي أصحابه بالسُنية.¹

وعلى ذلك يمكننا أن نقول بأن هذه التسمية كانت تميزا لهؤلاء عن غيرهم من القبائل العربية التي يغلب الظن أنها كانت تدين بعقيدة الفاطميين أي المذهب الإسماعيلي، وإلا ما كان لابن خلدون أن يخصص كل هذا الكلام للحديث عن هذه الحركة التي وللأسف لم نعثر على تفاصيل أخبارها في المصادر الأخرى التي أرخت لهاته الفترة، سوى عند ابن خلدون الذي يذكر أنه استفحل أمرها، وعمت تعاليمها منطقة الزاب بأسرها.

ووفق ما توصل إليه الميلي في دراسته للقبائل الهلالية، وعند ذكره لعلاقاتها ومعاملاتها للسكان، وجد أنه يأخذ منحنيين الأول: هو حسن التعامل مع من كانوا في صف الدعوة الشيعية، فكان يتم التعامل معهم وفق الأعراف السائدة، كالأخوة في الدين وما تجمعهم عليه تعاليم المذهب، وهي مناطق نفوذ كتامة وأحلافها من البربر الذين ناصرُوا بدايات الدولة الشيعية. أما مناطق نفوذ قبيلة صنهاجة، فإنها تعرضت إلى حصار رهيب وبات الناس يجدون صعوبة في التنقل والخروج من حصونهم وعادوا في حالة سيئة فكانت العرب تملك أرضهم، وتمنعهم من الخروج إلا بخفارتهم وتحت حراستهم.²

¹ - ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص، 634.

² - الميلي، المرجع السابق، ص، 182.

- خاتمة:

من خلال هذه المعطيات التي توصلنا إليها، فإننا نكاد نجزم بأن الأكثرية الكبيرة من شعوب ويطون العرب القادمة إلى بلاد المغرب وإن كانت لا تحمل معها صفة الدعوة إلى المذهب الشيعي إلا أنها أسهمت وبقدر كبير في نشر موروثاته في كل منطقة حلت بها، مثله مثل بعض العادات والتقاليد التي جلبتها معها من الحجاز ومصر، كالتخضيب بالحناء، وانتشار الأغاني البسيطة التي تولد عنها الشعر الملحون، مع الرقصات القويّة واستعمال الطبول الكبيرة التي لم يكن لها ذكر من قبل، وإدخال الجياد العربية الأصيلة. ويبقى تعريب بلاد المغرب أحد أهم نتائج القدوم الهلالي نتج عنه جنسا واحدا لطول المجاورة.¹ و سنرى لاحقا كيف سيتمكن أحد الدعاة البربر المتمكن من العلوم الدينية والحامل لمشروع إصلاح ديني جديد في بلاد المغرب وهو محمد ابن تومرت من إرساء دعائم دولة جديدة تحت عنوان الإصلاح الديني وسمى أتباعه بالموحدين. إلا أن المتمعن والمدقق لمراحل سيرة هذا الرجل والأشواط التي قطعها لنشر أفكاره بين عموم البربر والتعاليم الجديدة التي كان ينادي بها، ستبين لنا وبصدق عن مدى بقاء التأثير الشيعي كامنا في نفوس البربر ومن استوطن بلاد المغرب من القبائل العربية، فهو قد جعل من مبدأ الإمامة والعصمة والمهدوية أهم الركائز التي قامت عليها دعوته وهي نفسها الأسس التي يقوم عليها المذهب الشيعي بشقيه الإمامي والإسماعيلي.

- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، اعتناء ودراسة، أحمد الزعبي، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- 2- محمد الباجي المسعودي، أبي عبد الله، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، الط2، مطبعة بيكار، تونس (1323هـ/1902م).

¹ - الإدريسي، الشريف أبو عبد الله، صفة المغرب، من كتاب نزهة المشتاق، نشر دي غويه، لندن (1866)، ص،

- 3- الهادي روجي إدريس الدولة الصنهاجية في المغرب، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية، حمادي الساحلي، الجزء 1، الط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (1992).
- 4- ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من الشأن الأكبر، ضبط، خليل سعادة، ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (1431هـ/2001م)، المج 6.
- 5- الملي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء 2، تقديم وتصحيح: محمد الملي، المؤسسة الوطن للكتاب، .
- 6- الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة: عبد الرحمن بدوي الطبعة الثالثة (1987)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- 7- الطيب محمد سليمان، موسوعة القبائل العربية، بحوث ميدانية وتاريخية، المج 2، الجزء 1، الط 2، (1417هـ/1996م)، دار الفكر العربي، مصر.
- 8- محمد بن أبي القاسم الرهيني أبي عبد الله المعروف بإبن أبي دينار المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، الط 1، مطبعة الدولة التونسية، (1286هـ).
- 9- تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، إتحاف الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزء 2، تحقيق: محمد حلمي محمد احمد، القاهرة، (1416هـ/1996م).
- 10- أحمد عمر مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية في المغرب (عصر الموحدين وبني مرين، ديوان المطبوعات الجامعية) (1982).
- 11- أمين الدين تاج، الرياسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان الشهير بإبن الصيرفي المصري، الإشارة إلى من تولى الوزارة، تحقيق: عبد الله مخلص، مقتطف من مجلة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، المجلد الخامس والعشرون، طبع، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعادات الشرقية، القاهرة، مصر، (1923).
- 12- ناصر خسرو، سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، تصدير عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية للكتاب، الط 2، (1993م).
- 13- ابن عذارى أبو عبد الله أحمد بن محمد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء 1، تحقيق: ليفيروفنسال وج - س كولان، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- 14- أبو محمد عبد الله بن أحمد التيجاني، رحلة التيجاني، تقديم: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، (1981م).
- 15- الحسن بن محمد، وصف إفريقية، الجزء 1، ترجمة: محمد حجي، الط 2، (1983)، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان. .

- 16- ابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، الط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (1407هـ/1987م)، المجلد 9.
- 17- أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس القسم الرابع، المجلد الثاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- 18- أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد، أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم، تحقيق: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر والتوزيع.
- 19- خالد عبد الحميد، الوجود الهلالي السليمي في الجزائر، طبع (2003)، دار هومة، الجزائر.
- 20- عبد الله بن صفوان النصري، عبد الرحمن بن عمرو، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الط1، (1417هـ/1996م).
- 21- حسين ممدوح، الحروب الصليبية في شمال افريقية وأثرها الحضاري سنة (668هـ-792هـ/1270م-1390م)، الط1 (1419هـ/1998م)، دار عمار، عمان، الأردن.
- 22- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك (310/224هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المجلد العاشر، الط2، دار المعارف، مصر.
- 23- أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية.
- 24- زكار سهيل، القرامطة في الإحساء، الشام، اليمن، العراق، نشر دار إحسان، الط2، (1402هـ/1982م).
- 25- الإدريسي، الشريف أبو عبد الله، صفة المغرب، نزهة المشتاق، نشر دي غويه، ليدن (1866).

24- Ernest mercier. Histoire de l'Afrique septentrionale (BERBERIE) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830). Ernest Mercier. Tome second. Ernest le Roux éditeur. Paris. Éditeur. Paris. (1868).